مع الشمس الغاربة

للأستاذ م . دراج

واعجباً لهذا الفكر المضطرب ! كلما تهيأت لأواجه موضوعاً خذلني وارتد القلم يترنح من عنف الصدمة ، تاركا وراءه خطوطاً مائلة متكسرة متعرجة — كتلك التي تجرها يد طفل عابث — هي كل ما أغنمه من أسلاب الفكر المهزوم !... حاولت ذلك مرة في الإسكندرية ، وأخرى في دمياط ، وثالثة في المحلة الكبرى ، ومرة أخيرة هنا في القاهرة ، ومع ذلك فشلت ، وكان فشلي محزناً يدعو إلى الإشفاق . لم أدر لذلك سبباً ، فأنا حين أكتب لا أحتاج إلى جو خاص ، وليس ثمة ضجيج يمنعني عن الكتابة أو سكون يعينني عليها . ذلك لأني لا أغتصب الفكر شيئاً إلا إذا أحسست برغبة قوية عميقة حارة تدفعني إلى الإذعان له

وها أنذا أعود مرة أخرى إلى الإسكندرية لأحاول من جديد إخضاع الفكرة العصية المتمردة لعلها تلين وترضى . . . فهل من سبب لهذه الظاهرة ؟ أجيبوا يا أصحاب الخبرة والتجارب ؟

كنت أفكر في هذه المرحلة التاريخية التي كان من حظي أن أعيش فيها لأشاهد أعظم انفجار عالمي يوشك أن يزلزل رسوم الحياة، بما فيها من نظم وأخلاق ، وعادات وأفكار ، تتصل كلها بصميم الحضارة — حضارة القرن العشرين — تلك التي كلما فشلت في رسالتها، قذفت بالبشرية في جحيم الحرب باسم الحرية ، ذلك الوهم المنحوس .

وكان هذا التفكير يجلو لعيني صوراً غامضة ، تسطع فجأة ، ويتألق نورها ، فأرى على وميضه بلاداً غنية التربة ، تنتج من الغلال والحبوب فوق حاجتها فلا ترى مانعاً من أن تلقي بالفائض في البحر ، كلما وجدت في هذا العمل الشائن ما يحفظ للسلعة سعرها العالي المناسب . . . فهذه كميات عظيمة من الأذرة تروح « علفاً » للخيل ، وتلك مقادير هائلة من ثمار « الموز » تبتلعها الأمواج ، وأخرى من البن تلقى بين النيران المتأججة . ثم أشاهد أناساً يسكنون الأصقاع الشمالية يتفضون من الجوع والبرد ، يتضورون بين الأدغال طلباً للخبز أو الدفء فلا يكادون يبلغونه إلا على سنان المخاطر . . . ثم أجدني قد انتقلت إلى سوق أخرى تزدحم فيها المصانع ، وتتكدس الآلات والمنتجات ، ويكثر التعطل والجوع والحرمان !! وتمر الأقطار أمام عيني مراً سريعاً ، وكأني أشاهدها على الشاشة البيضاء . فهذه رقاع من الأرض ضيقة الشقة قليلة الموارد صخرية التربة يتمتع أهلوها بأطايب الحضارة وملذاتها ؛ وأخرى بلاد غنية تدر الذهب ، وتخصب الشهد ، ومع ذلك فهي فقيرة يعيش أهلوها جياعاً حفاة شبه عراة !! وثمة شعوب نابهة ومتبوعة . صور عجيبة متناقضة تنتظم سلك الحضارة ، ومع ذلك يأسفون لوقوع الحرب ! ويندبون حظ الحضارة الآفلة !! ...

هذه هي الحياة كما رأيتها على وميض الفكر الواعي : خداع وطمع ، سيادة واستعباد ، ترف وحرمان ، ضحكات ودموع ، وحشية عارية تستتر وراء الفكرة الخبيثة التي يسمونها بالحرية ! فأنتفع من هذا كله بشيء واحد ، برعت المدنية في إبداعه من حيث أخفقت في كل شيء . ذلك هو المظهر الخلاب على الجوهر الرخيص المبتذل . وكأن الذين فتنتهم هذه المدنية نسوا أن المظاهر تعيش حيناً ثم يعروها التلف والفناء ، أما الجوهر فيبقى دائماً كما هو . . .

كانت الشمس تحتضر عند حافة الأفق البعيد ، لما أشرقت أفكاري بهذه الصورة الغاربة . وكنت قد أسلمت نفسي لصديق أتبع خطواته كطفل وديع مطيع ، لا أعترض ولا أستفسر عن شيء ، حتى استقر بنا المطاف على متكأ عند شاطئ البحر فشاهد هذا الصراع العنيف بين عناصر الطبيعة ، وتتابع تطوراته باهتمام بالغ . فرأينا الشمس الغاربة مكفهرة الوجه ، تسيل منها العبرات شعاعاً مخنوقاً يتساقط على مياه البحر ، فيصبغها بلونه الأرجواني الحزين . وهناك في الجانب الآخر من الأفق ، كانت طلائع الليل الزاحف تتوالى هنا وهناك ملقية ظلالها الكئيبة على الأحياء ،

ترى من نفهم الآن بحاملاتنا من أصحاب الإعلان ومن المساهمين في الصحيفة الذين لا يأبهون إلا لما يخلص إلى جيوبهم من ربح ومن يتهجرون بالتداول الصحفي ، ولو كان تداولاً زائفاً مصطنعاً

وقد سقط في أيديهم وتملكهم العجب مما تهيأ للصحفي المثالي من نجاح عظيم ، وإلى أن يتاح لي تحقيق هذه الآمال المنشودة ستظل صحيفتي المثالية وهي في مملكة المثل الأعلى من عالم الخيال . وستظل الصحافة البريطانية — إذا قدر لها حقاً ألا تستعبد للحكام المستبدين — وهي تسير متثاقلة على نفسها في طريقها الذي تسلكه راحلة حيث لا تنفك بعيدة عن قمة المجد الصحفي التي تتوق لها نفسي ويخفق بحبها قلب كل صحفي أصيل

(المنصورة)

والبحر واجم يتلقى أنفاس الشمس اللاهثة بحنان وصمت غريبين . أما الطيور فكانت جازعة ، كأم روعها الخطر على وليدها ، فهى تروح وتغدو مولولة صارخة تستنجد ولا مغيث ! حتى إذا هجم الليل هجومه الأخير ، ارتعش النور ، واضطربت الشمس ، ثم أسلمت نفسها للمغيب ...

سقطت الشمس الغاربة فى هوة المغيب ، فأحست برجة عنيفة تسلبنى اليقظة ، وتتركنى إنساناً بلا وعى . كنت — فى الحقيقة — جسما ملقى على الجدار الصخرى القائم عند التقاء اليابسة بالبحر ، لا يحس ولا يتأثر بما حوله ، فإن بدت منه التفاتة إلى هنا أو هناك ، فهى بلا شك نظرات لا معنى لها ، كتلك التى تصدر عادة من ذوى الأفكار الشاردة . آه ، لقد عرفت الآن أن هذه الرجة التى أصابتنى ، لم تكن إلا وثبة من أفكارى لحقت بالشمس الغاربة فى دنيا المغيب

أين يذهب هذا النور ؟ ولماذا تبدو عليه دلائل الأعياء كلما غرب أو أشرق ؟ هكذا كانت توسوس نفسى ! فتبعث آخر شعاع ينفلت من يد الظلام ، وانسللت وراءه أتجسس فى دنيا المغيب عن أسرار هذا الكون العجيب . سمعت همسا يدور حول جريحة تنزف الدماء منها بغزارة ، وليس فى وسع أحد أن ينقذها من الخطر

هم يقولون : إنها طالة لنفسها ، وليس ثم من يستطيع علاجها إذا كانت أظافرها هى سبب بلائها ! وفجأة ، رأيت لهيباً يندلع فى الجو ، وسحباً داكنة تنعقد فى سمائه ، ومياهاً باردة ترتطم بوجهى ، فأصحو من غشيتى لأسمع زئير البحر الهائج ، وقد تدافعت أمواجه وتلاطمت ، وقذفت وجهى برشاشها المتطاير . ثم أسمع دوياً هائلاً يهز الأرض هزاً عنيفاً يعقبه طلقات سريعة متتابعة تندفع إلى السماء مزمجرة صاخبة ، فأطلع بوجهى إلى حيث استقرت فى كبد الظلمة فأرى خطوطاً من النور تمتد وتتطاول ، ثم تتحرك فى سرعة خاطفة ، والأشباح تهوم فى الفضاء ، والريح الباردة تعصف بشدة ، فأدرك فى الحال من تكون تلك الجريحة التى كانوا يتهامسون عنها فى دنيا المغيب ! وأعلم أنها « الإنسانية » التى طعنت نفسها بسلاح الطمع وأضرمت فى جسمها نار الحرب !

أما النور الذى يبدو عليه الإعياء كلما غرب أو أشرق ! فهو الحرية التى يتعلل بها المجرمون فى دنيا الوحشية والطغيان !

وهنا هتف صديقى قائلاً : لقد غربت الشمس ، وأسدل الليل ستاره الأخير ! فزدت ، وانقضت الحرب بصواعقها ، وما تدرى متى ترفع نقمتها عن العالمين .

م . دياج

ظهر حديثاً كتاب

حياتى

تأليف

لشاعر الأقطار الأستاذ

محمد عبد الغنى حسن

وهو دراسة أدبية انتقادية تحليلية ، على نمط علمى حديث لحياة الآنسة مى أديبة القرن العشرين

قراءة هذا الكتاب حق على كل رجل وامرأة ، ففيه صورة الأدبية العربية الموهوبة ، والكاتبة الشرقية المثقفة فى طرازها الأدبى الرفيع

يطلب من إدارة مجلة المقتطف

ومن مكتبة السعيرى ٩ شارع عبد العزيز بمصر

وثمنه ١٠ عشرة قروش

الأنصار

مجلة الفكرة العربية والثقافة الاسلامية

صدر عدد شهر محرم فى موعده من أول السنة الهجرية الجديدة ١٣٦١ فابتدأت به « الأنصار » مرحلتها الجديدة فى عامها الثانى ، حافلة بموضوعاتها الجديدة ، وأبحاثها الحية ، متميزة بطابعها الخاص من الصدق والشمم ، نقية من الفضول ، وافية الصورة فى التعبير عن فكرتها والدعوة لمبادئها

ومن أهم موضوعات هذا العدد الجديد :

حكمتان من سماء الهجرة . بعد الرسول المحبوب . الاسلام بعد أربعة عشر قرناً . قبل انطفاء الأنوار على شواطئ البحر الأبيض . إلى أبنائى . . . بقلم شيخ المعلمين الازهريين وقيمهم . تركستان قبل الاسلام وبعده . نشأة الأساطير . الاعجاب بالحضارة الفرعونية إعجاب بمقوماتها الوثنية . ثلاث كلمات جامعية . خواطر الأنصار .

الاشتراك السنوى فى مصر والأقطار العربية ٢٠ قرشاً وللمعلم الإلزامى والطالب ١٥ قرشاً . والمكاتبات وطلب الأعداد بعنوان الأنصار :

٤٢ شارع الجبلاية . القاهرة